قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩١﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾

التفسير: أي اسأل هؤلاء القوم من رب السماوات السبع والعرش العظيم؟ سيقولون: الله. فما دام الله تعالى هو الذي خلق جميع أنواع الرفعة هذه فهو الوحيد الذي يجب أن يأتي من عنده التعليم الروحاني العالي أيضًا؛ فهو رب العرش العظيم.. أي هو الذي بيده المُلك الروحاني، فمن الغباء التوجه إلى العقول البشرية ونظريات الفلاسفة من أجل العلوم الروحانية، إنما تأتي هذه العلوم من عند الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى: سل هؤلاء القوم: من بيده ملكوت الكون كله، ومن ذا الذي يهيئ الملاذ لمن يأتيه هاربًا من وجه الآخرين، وإذا عاقب هو أحدًا فمن المحال أن ينقذه منه أحد؟ سيقولون: الله. فقل لهم: هل فقدتم الصواب، فأنّى تُصرَفون خداعًا؟ أي ما دامت أبواب الهدى مفتوحة أمامكم على مصراعيها فكيف يتمكن الشيطان من خداعكم حيث يدفعكم إلى الشرك رغم معرفة هذه الأمور؟ الحق أن

القرآن الكريم يدعو إلى الحق أي إلى التوحيد، أما هؤلاء فيكذبون أي يقعون في الأعمال الوثنية، مع أن الله تعالى لم يتخذ ولدًا قط، ولم يكن معه من إله، وإلا لذهب كل إله بمخلوقاته وحاول إثبات فضله على غيره من الآلهة. ولكن هذا لم يحدث قط، إذ ما زال في الدنيا قانون موحد. فثبت أن الله تعالى منـــزه عما يصفه به المشركون. إنه عالم الغيب والحاضر. فسريانُ قانون موحد على جميع التغيرات، سواء ما ظهر منها وما بطن، لدليلٌ على كذب المشركين. إذ لو كان هناك أكثر من إله لم يكن بد من أحد الأمرين: أولهما أن تخضع سائر الآلهة لأحد منهم ولا تتدخل في حكمه، وفي هذه الحالة صار وجود الآلهة الأخرى وعدمها سيَّين، لأن أحد هذه الآلهة ما دام يقوم بالأعمال كلها فما الداعي للآلهة الأخرى؟ وثانيهما أن يكون كل واحد من هؤلاء الآلهة يدير نظامًا خاصّا به، وفي هذه الحالة لا بد أن نجد في نظام الكون اختلافًا؛ ولكنا نجد أن القانون الطبيعي المشاهَد في الكون لا يزال منذ ملايين السنين جاريًا على منوال واحد، ولم نجد فيه أي اختلاف؛ فثبت أنه لا يدير هذا الكون إلا إله واحد، ولا شريك لـــه في ذلك.

وقوله تعالى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يتضمن الرد على ألوهية المسيح عليه السلام أيضًا، حيث بين الله تعالى أنه لا بد للإله أن يكون عالمًا بالغيب، ولكن المسيح يقول: "أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابنُ إلا الآب". (مرقس ١٣: ٣٢)

فما دام المسيح لا يعلم الغيب فكيف يصح اعتباره إلهًا.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾

التفسير: يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه أحيانًا يستعمل صيغة الجمع ويقصد بها فردًا واحدًا، حيث استخدم الله تعالى لفظ "الرسل" في مواضع شتى مع

أنه يشير إلى رسول واحد؛ وذلك لأن كل رسول يكون مشابهًا لجميع الرسل السابقين. وفي بعض الأحيان يتحدث القرآن الكريم عن شخص واحد وهو يقصد به قومًا، ومثاله هاتان الآيتان، فالدعاء فيهما ليس من الرسول ﷺ بل من أمته. ذلك لأن العذاب إنما كان سينـــزل على الكافرين بسبب معارضتهم للنبي ﷺ، فيصبح من اللغو، والحال هذه، أن يعلَّم هو دعاء بأن يا رب إذا جاء هذا العذاب الموعود فلا تشركني فيه. فالواقع أن الخطاب في قوله تعالى ﴿قُلْ﴾ موجه إلى كل قارئ للقرآن الكريم، حيث علّمه الله تعالى أن يدعو دائمًا أن يا رب إذا حل العذاب بالكافرين فلا تشركني في عذابهم. لقد آمنت بمحمد رسول الله ﷺ، فلا تُشمِتْ بي الأعداءَ ولا تضمّني إليهم عند العذاب لتقصير مني. أو المعنى: يا رب، إذا جاء العذاب وهلك الكفار وأخذ المسلمون زمام الحكم، فثبّتْني عندها على العدل والإنصاف، ولا تدَعْني أصبح في عداد الظالمين. وفي هذه الحالة يصبح هذا دعاء لتجنب الظلم، والمعنى أنه إذا ما حل العذاب بالكافرين، وزالت دولتهم وصار المسلمون حاكمين، فلا تدَعنا يا رب ننسى العدل والإنصاف في نشوة الحكم، فنظلم الناس ونثير سخطك علينا.

وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٦﴾

التفسير: أي أننا قادرون أن نعذبهم أمام عينيك وندمرهم في حياتك. وهذا ما حدث بالفعل حين فتحت مكة ودُمرت قوة الكافرين، وصار الحكم في أيدي المسلمين، ثم قويت الحكومة الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما– أكثر حتى قضت على إمبراطوريات قيصر وكسرى.

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير: لقد علّم الله تعالى هنا رسوله أن يرد على ظلم العدو بالعفو والإحسان، لأن رد الشر بالخير من صفة أولي العزم من الأنبياء. فلا يقولنّ في نفسه أن عدوه ظلم ثم نجا من العقوبة بسبب العفو، فلعله يعود إلى شره ثانية. كلا، فإننا على علم بكل مكر يمكره العدو، ولا شيء هو خارج عن نطاق جزائنا.

وقد بين الله تعالى الحكمة وراء هذا الحكم فقال ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(حم السجدة فُصِّلَت:٣٥).. أي عليك أن تردّ بالإحسان على شر العدو، فسترى أنه سيصبح نادمًا بسبب حسن معاملتك، فيصبح صديقًا حميمًا لك. وكأن الله تعالى يبين هنا أن الهدف من العقوبة أن يتجنب المرء شر غيره ويجعله يهتمّ بتدارك خطئه، ولكن إنـــزال العقوبة على الآخر ليس هو الطريق الوحيد لتجنب شر الآخرين، بل إذا كان العفو سيؤدي إلى الإصلاح فالأفضل للمرء أن يعفو عن الجاني ولا يظن بعد ذلك أن العفو ربما يأتي بنتيجة سيئة؛ إذ من المحال أن لا يتأثر الطرف الآخر من هذه المعاملة الحسنة. كلا، بل إنه يمتلئ خجلاً وندمًا، فيصبح من الأصدقاء المحبين.

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

همزات: الهَمْزُ كالعَصْر، يقال: همَزتُ الشيء في كفّي (المفردات). وهمَز رأسَه: عصَره. وهمَز الشيطانُ الإنسانَ: همَس في قلبه وسواسًا (الأقرب).

التفسير: اعلم أن "همزات الشياطين" لا تعني هنا وساوس الشيطان، بل المراد من الشياطين هنا أعداء الإسلام الذين كانوا يؤذون الرسول ﷺ بصنوف العذاب. وكما ورد في شرح المفردات فإن الهمز يعني العصر أيضًا، فالمراد من دعاء ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أن يا رب

احمِني من هجمات إخوان الشيطان هؤلاء الذين يريدون أن يسحقوني سحقًا، ويا رب لا أسألك أن تحول دون غلبتهم علي فقط، بل أسألك أن تمنعهم من الاقتراب مني، فلا يؤذوني بأي أذى. وهذا المعنى يؤكده قول الله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾، حيث اتضح أن هذه الآيات لا تتحدث عن الوساوس الشيطانية بل تتحدث عن شياطين الإنس الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ. ولو لم نقبل هذا المعنى لم يعد الكلام متناسقًا.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أنه حين يحدق الهلاكُ بالمشرك ينسى أصنامه وآلهته ويتوجه إلى الله تعالى ويدعوه بكل تواضع وخشوع.

إن هذه الآية غاية في الروعة حيث قد جمع الله تعالى معاني واسعة في كلمات وجيزة. فأولاً إن الله تعالى يذكر هنا أن هذا الكافر المشرك يناديه تعالى بلفظ ﴿رَبِّ﴾، مما يعني أنه يعترف عندئذ بالتوحيد علنًا. ثم يتوسل المشرك إلى الله تعالى بقوله ﴿ارْجِعونِ﴾.. وهي صيغة الجمع التي تدل على اعترافه بكون الله تعالى عظيمًا وجامعًا للكمالات كلها.

كما أن لفظ ﴿ارْجِعونِ﴾.. يكشف لنا حيرة الكافر وقلقه، إذ يعني ﴿ارْجِعونِ﴾: أَرْجِعْني، أَرْجِعْني، أَرْجِعْني، ذلك لأن صيغة الجمع إذا استُعملت للمفرد دلّت على التكرار. إذًا فالله تعالى قد كشف بهذه الكلمة الواحدة عن شدة حيرة الكافر ومزيد قلقه الذي سيحاول تقديم طلبه لله تعالى في عجلة وتكرار.

ثم جملة ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ تشكل اعترافًا أكبر من المشرك بعظمة الله تعالى حيث ينكشف عليه عجزه وضعفه وتتجلى لـــه قدرة الله الكاملة، فإنه رغم توبته الصادقة في زعمه سيقول يا رب لقد ذهب اليوم ما كان لدي من كبر وغرور. فلا أستطيع أن أعدك بيقين أنك لو أرجعتني إلى الدنيا سأعمل أعمالاً صالحة حتمًا، غير أني آمل أن أعمل صالحًا، إذ قد انكشفت علي حقيقة أمري وقلة حيلتي.

لقد بين الله تعالى في قوله ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أن الكافر لا بد أن يقول هذا الكلام في يوم القيامة بكل حسرة وندامة، ولكن لن ينفعه قوله هذا شيئا، ولن تتحقق رغبته هذه أبدا. غير أن لقوله هذا معنى آخر وهو: ما هي إلا كلمة يقولها الكافر ولكن لا يستجاب دعاؤه، لأنه سيوضع بينه وبين الدنيا حجاب إلى يوم القيامة، فمن المستحيل أن يرجع إلى الدنيا ثانية.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠٢﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٤﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

التفسير: من معاني الصُوْر القرنُ الذي يُنفَخ فيه لجمع الجيش، وهذا إشارة إلى أن الكافرين كلهم سيجمعون في ذلك اليوم للحساب والمؤاخذة.

غير أن الصُوْر جمعُ الصورة أيضًا، وعليه فالمراد أنه ستُنفَخ الروح في صور البشر فيعودون إلى الحياة. وهذا يعني أن الناس لا بد أن يُعطَوا في الآخرة جسمًا ما وإن لم يكن جسما ماديا كالذي يكون للناس في هذه الدنيا.

أما قوله تعالى ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ فقد بين الله تعالى فيه أنه لن ينفع أحدًا مساعدة مساعد، بل سينفعه عمله فقط. فإذا كانت حسناته أكثر من سيئاته فقد أفلح ونجا، وإن زادت سيئاته عن حسناته فقد خاب وخسر.

أما قوله تعالى ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فبين فيه أن الناس في ذلك اليوم لن يسألوا عن الآخرين بل يكون لكل امرئ منهم شأن يغنيه عن الآخرين فلن يتوجه إلى غيره.

وبين في قوله تعالى ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أن سادة الكفار أيضا سوف يقعون في العذاب. ذلك لأن لفظ الوجه يعني السيد أيضا (الأقرب). إذًا فإنهم سيتحسرون على تقصيرهم متأسفين، ولكن لن ينفعهم عندها أسفهم شيئا.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٧﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير: أي أننا لم ننـــزل العذاب عليكم بدون إقامة الحجة، ولكنكم ظللتم مصرين على الإنكار رغم قيام الحجة عليكم.

عندما يسمع الكافرون قول الله تعالى هذا يقولون ربنا قد أحاطتنا شقاوتنا وكنا ضالين. فأَخْرِجْنا مما نحن فيه ولو عدنا بعد ذلك إلى أعمالنا السابقة فإننا ظالمون بلا شك ويمكن أن تعاقبنا كما تشاء. فيقول الله لهم ابتعدوا عني وادخلوا في الجحيم ولا تتكلموا معي. لقد كان عبادي المؤمنون يقولون ربنا آمنّا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير من يرحم، فاتخذتموهم هدفًا للسخرية وكنتم تجدون في ذلك من المتعة ما أنساكم بطش الله تعالى وكنتم تضحكون على هؤلاء. وقد جزيتهم اليوم على صبرهم أنهم اليوم الفائزون الغالبون.

إنه لمن المستغرب أن الله تعالى يقول هنا إنه لا يتكلم مع من يغضب عليه بل لا يسمح له أيضا بالكلام معه، ولكن من سوء حظ المسلمين أنه جاء عليهم زمان أخذوا يقولون فيه إن الله تعالى لن يكلم أحدا من الأمة المسلمة لأنها أفضل الأمم. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٤﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٥﴾

شرح الكلمات:

يوما: اليوم يعني الوقت مطلقا. قال الشاعر:

يوماه يومُ نَدًى ويومُ طِعانِ

(أي يأتي على الممدوح وقتان، فإما هو في سخاء وكرم، أو في قتل أعداء).

اليوم: الدهر (لسان العرب)

التفسير: أي عندها سيقول الله للكافرين كم مكثتم في الأرض من السنين. فيقولون: مكثنا يوما أو بعض يوم. وقولهم هذا يدل على عدم علمهم، ولأجل ذلك يقولون في آخر الآية ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لقد بين الله تعالى في هذه الكلمات أن الكافرين يقضون حياتهم في اللهو واللعب، والوقت الذي يقضيه المرء هكذا يبدو له قليلا جدا. ومن أجل ذلك قال الله تعالى بعد ذلك ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي أيها الناس هل حسبتم أننا خلقناكم بدون غاية، فضيعتم أعماركم عبثا، ظانين أنكم لن ترجعوا إلينا لتحاسبوا على ساعات حياتكم المضيئة منها والمظلمة، مع أنه لو صح ظنكم لما ثبتت وحدانية الله تعالى ولا مَلكيّتُه، إنما تثبُت إذا كان لحياة الإنسان هدف، ومن لم يحقق هذا الهدف ويضيع عمره في اللهو واللعب فيجب أن يحاسب على ذلك.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٧﴾

التفسير: لقد نبه الله تعالى هنا الجنس البشري إلى أن يتدبروا في غاية خلقهم ويفكروا فيما إذا خُلِقَ الكون بلا هدف أو أنه لعبة يتفرجون عليها فحسب. هل يظنون أننا خلقناهم كلعبة ثم ندمرهم بدون أن يعودوا إلينا كما يفعل الأولاد حيث يصنعون لعبا ثم يفسدونها ويكسرونها؟ إنها فكرة حمقاء تماما ونسبتها إلينا إساءة بالغة في حقنا إذ يعني هذا أن الله تعالى طفل في نظركم مع أنه يتعالى عما تظنون علوا كبيرا. إنه رب كامل الصفات ومن المحال أن يتصور أحد أنه يلعب كالصبيان حيث يخلق الكون ثم يدمره تدميرا؛ ليس له هدف ولا غاية، مثله كمثل الصبيان الذين يبنون من الرمال بيوتا وفي النهاية يهدمونها بأرجلهم عندما يعودون إلى البيوت. يقول الله تعالى هل تظنون أننا خلقنا هذا الكون لاعبين كالصبيان..

أي نخلق الإنسان ثم نهلكه ونميته بعد فترة من الزمان، وهذا يعني أن الأطفال يلعبون بما يصنعونه ساعة أو ساعتين، وأما نحن فنلعب بما نصنعه سنوات عديدة! يقول الله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾.. أي أنكم لا تنسبون مثل هذا العمل إلى أي إنسان عاقل فكيف تنسبونه إلى الله تعالى؟ إن الوقت الذي يلعب فيه الطفل ببيته الرملي أقل كثيرا من الوقت الذي يقضيه في بنائه، أما الشخص العاقل إذا ما بنى بيتا فلا يهدمه إلا إذا كان فيه عيب، أو أراد أن يبني بيتا أفضل منه. أما الله تعالى فليس في ما يصنعه عيب، ثم إنه تعالى هو خالقُ العقل وعظيم الشأن، فكيف يمكنكم القول إنه يلعب. والواقع أنه يوجد في العالم العديد من الفلاسفة الذين يظنون أن هذا الكون لعبة خلقها الله تعالى لنفسه. إنه تعالى استوحش الوحدة فقال لنفسه نصنع شيئا نلهو به فخلق الإنسان. وكما يبتهج الولد حين يكسر لعبته بينما يسخط عليه أبواه، كذلك عندما يموت أحد من البشر ويبكي عليه أقاربه، يضحك الله ويفرح. وعندما تتأوه الأم من شدة آلام الوضع يضحك الله عليها ويبتهج. وهناك كثير من الناس الذين لا يقولون شيئا من هذا القبيل، ولكن أعمالهم تدل حتما على أنهم يقولون في أنفسهم: لماذا جئنا إلى الدنيا؟ ثم يظنون أنهم قد أتوا إلى الدنيا عبثا. ولو ناقشت أولئك الذين لا يرون لحياتهم غاية روحانية لوجدت أنهم يعتقدون أن الله تعالى إنما يلعب لعبة فحسب، والعياذ بالله. فالله تعالى يرد عليهم بقوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾: أي أنه أعظم شأنًا وأسمى مقامًا من أن يفعل هكذا. إنه لم يخلق الكون لهوًا ولعبًا، بل لقد اقتضت أربع من صفاته خَلْقَ العالم. لقد اقتضت صفاته الأربع هذه أن تتجلى، فخلق الله تعالى الكون. وهذه الصفات الأربع هي: ﴿الْمَلِكُ﴾ و﴿الْحَقُّ﴾و﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ و﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾. إنه تعالى ملكٌ، ومن مقتضى ملكيته أن يظهر ويتجلى. وإنه تعالى الحقُّ وكونه الحق يتطلب أن يتجلى. وإنه تعالى هو ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ ومن مقتضى وحدانيته تعالى أن يتجلى. وهو تعالى ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، وهذا يقتضي أن يتجلى. فلما كانت هذه الصفات الإلهية الأربع اقتضت ظهورها فخلق الله هذا الكونَ. ولو تدبرنا في هذه الصفات لوجدنا أنها في الواقع نفس تلك الصفات المذكورة في مستهل سورة الفاتحة، حيث يقول

الله تعالى ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، والفرق الوحيد هو في الترتيب فقط، حيث وردت هذه الصفات كلها في هذه الآية بعكس الترتيب الموجود في سورة الفاتحة. فترى أن قوله تعالى ﴿الْمَلِكُ﴾ يشير إلى صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقوله تعالى ﴿الْحَقُّ﴾ يرمز إلى صفة ﴿الرَّحِيمِ﴾، وقوله تعالى ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يومئ إلى صفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾، وقوله تعالى ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ يشير إلى صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وكأن الصفات الأربع الواردة في قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ قد ذكرها الله تعالى باعتبارها المنبع، بمعنى أنها الصفات التي اقتضت خلق الكون، ولكن عندما خلق الإنسان نتيجة لذلك ذكر تلك الصفات الأربع بأسلوب آخر نظرا لعلاقة الله بالعباد. وبتعبير آخر لما خُلق الكون من قِبل رب العرش الكريم العليّ سُمي رب العالمين نظرًا إلى العالم، ولما أرادت وحدانيته الكاملة أن تتجلى ظهر للناس بصورة الرحمن، فلبى كل حاجة للعالم كدليل على أنه لا إله إلا هو، ثم لما أرادت صفته (الحق) – التي معناها مَن وعدُه الحقُّ والذي يقوم على هذا العالم بالحق – أن تتجلى ظهر على صورة الرحيم، ثم لما اقتضت ملكيته أن يسن قانونا سنَّ القوانين والأحكام وقال الآن سأحاسب كل واحد لأرى مدى طاعته لأوامري، فظهر في صورة مالك يوم الدين. فالواقع أن الصفات الأربع الواردة في هذه الآية هي كمنبع للصفات الأربع المذكورة في سورة الفاتحة، بيد أنها وردت في سورة الفاتحة بترتيب يتفق مع موضوعها، أما في هذه الآية فجاءت بترتيب يتناسب مع موضوع خلق الكون، بمعنى أنه لما تجلى ﴿الْمَلِكُ﴾ ظهرت للناس صفته ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي مالِكُ يومِ الجزاء، ولا يمكن أن يترتب الجزاء ما لم يكن هناك قانون من قبل الملك، فثبت أن كون الله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ نتيجة لملكيّته تعالى بداية. وكذلك لما أرادت وحدانيته تعالى أن تظهر انكشفت صفته الرحمانية، لأن الرحمن هو من يسد كل ضرورة حقيقية لكل مخلوق بغض النظر عن أي عمل يتمّ من قبل ذلك المخلوق، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان هناك إله واحد، أما إذا كان الماء مثلا سيأتي من إله بينما

يأتي الخبز من إله آخر لاستحال التسليم بالوحدانية. ولكن إذا رأينا أن الله تعالى يسد لنا كل حاجة فيقرّ عقلنا أنه لا حاجة لأي إله سواه. فالحق أن صفة الرحمانية هي من أقوى الدلائل على وحدانية البارئ تعالى إذ تسدّ حاجات كافة المخلوقات دون خلل أو انقطاع. ومن أجل ذلك نرى أن عقيدة توحيد البارئ تعالى إنما توجد في الأمم التي تؤمن برحمانية الله تعالى. إن الهندوس والمسيحيين أمتان مشركتان وكلتاهما لا تؤمنان برحمانية الله تعالى، وقد اضطرت إحداهما بسبب هذا الإنكار إلى اختراع عقيدة التناسخ بينما اضطرت الأخرى إلى اختلاق عقيدة الكفارة!

ثم لما أرادت صفة الله ﴿الْحَقُّ﴾ أن تظهر وهب لطلاب الحق الحياة الأبدية من خلال رحيميته، لأن الرحيم هو من يجزي على الأعمال الحسنة أحسن جزاء ولا يضيع عمل عامل، وهذا ما تقتضيه صفته (الحق) أيضًا، لأن (الحق) يريد أن لا يخلف وعده وأن ينال الناس ما وعدهم من جوائز؛ كما أن الحق يعني أيضا القائم بذاته والذي يجعل الآخرين أيضًا قائمين ثابتين، وصفة الرحيم – أي من يجزي مرة بعد أخرى – ذات صلة بصفة (الحق) لأن (الحق) لا يقوم بنفسه فقط بل يجعل الآخرين أيضا ثابتين كما يجعل جوائزهم قائمة ثابتة. والواقع أن لفظ (الحق) مصدر والمصدر يُستعمل بمعنى اسم فاعل مع المبالغة في المعنى، مثل لفظ العَدْل الذي يعني العادل جدًّا (الأقرب). وبما أن الرحيم أيضا يعني من لا يضيع عملا حسنا لأحد ويجزي بلا انقطاع لذا فثبت أن هذه الصفة إنما تتعلق بـــ (الحق).

ثم أراد ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أن يكون هناك مخلوق يقوم بربوبيته، فخلق الكون، وهكذا فظهر على صورة (رب العالمين). لقد بين الله تعالى باستعمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أنه مركز للصفات الحسنة كلها وأنه صاحب الحكم وأن عرشه كريم، والكريم هو صاحب العزة والإحسان؛ وهذا هو المراد من (رب العالمين).

قصارى القول إن صفة (رب العالمين) تابعة لصفة (رب العرش الكريم)، وصفة (مالك يوم الدين) تابعة لصفة (المِلك)، وصفة (الرحيم) تابعة لصفة (الحق) وصفة

(الرحمن) تابعة لصفة (لا إله إلا هو). إذًا فالصفات الأربع المذكورة في سورة الفاتحة هي نفس الصفات التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، وهكذا نبه الله الناس إلى أنه لم يخلق الكون لهوًا ولعبًا بل قد خلقه لأنه ﴿الملِك﴾ ولأنه ﴿الحق﴾ ولأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ ولأنه ﴿رب العرش الكريم﴾.

إن هذه الصفات الأربع هي التي اقتضت أن يتجلى ﷻ فأظهر نفسه، ولو تدبرنا لوجدنا أن هذه الصفات الأربع توجد في الإنسان أيضا على سبيل المجاز. لقد أودعه الله تعالى صفة ﴿الملِك﴾ التي يصبح بها مظهرا لـــ ﴿مالك يوم الدين﴾. وهذه الصفة غالبة على الناس لدرجة أن أفشل الناس أيضا يتمنى أن يصبح ملِكًا ويكون توّاقًا لتقديم مشورته واقتراحه. ثم إن الملكية تقتضي نظاما، والإنسان أيضا يسن القوانين بصفته ملِكا، ويفصل بين الناس بصفته ﴿مالك يوم الدين﴾. ثم إن الملكية تدل على نظام كامل لأن من واجب الملك أن يحافظ على النظام ولا يدع الناس يظلم بعضهم بعضا. وبما أن الله تعالى ﴿الملِك﴾ فاقتضت ملكيته وجود نظام بين الناس أيضا، ومن أجل ذلك خلَق الإنسان بطبع مَدَني يحب العيش مع الآخرين، وجعَل له الزوجات والأبناء والأقارب والأصدقاء. لا شك أن للحيوانات أيضا أولادا وأقارب وما إلى ذلك، ولكنها لا تعيش معها كما يعيش مع الإنسان أقاربه وأولاده. فمثلا ليس عند الحيوانات نظام تربية الأولاد بل بمجرد أن يصبح ولدها قادرا على أن يقتات بنفسه تخرجه من البيت. لا يمكن أن تأخذ الحيوانات ولدها معها بعد أن صار كبيرا، بينما نرى في الناس أن الإنسان حتى ولو صار شيخا كبيرا فإن أبويه يهتمان به ويفكران فيه. ثم ليس عند الحيوانات أي نظام للقرابة، ولو سمينا نظام التعاون الموجود بين النمل نظام القرابة فليس عندها نظام عائلي كالذي عند الناس فلا ترث بعضها بعضا ولا تتحمل إطلاقا مسؤولية الآخر بدافع القرابة.

فبما أن الملكية تقتضي نظاما كاملا أراد الله تعالى أن يوجد نظاما كاملا في العالم ومن أجل ذلك خلق الإنسان مدَني الطبع.

ثم إن صفة ﴿الحق﴾، التي تتبعها صفة الرحيمية، تدل على إصلاح الأخلاق الفاضلة والأعمال، ذلك لأن الرحيمية معناها إعطاء أحسن الجزاء على الأعمال وهذا يتعلق بالأخلاق لأن الإنسان إنما يُجزى على عمله إذا كان عملا حسنا وإلا فلا. وكما أن الله تعالى خلق الإنسان مدَني الطبع ليكون صالحا لقبول نظام الملكية كذلك إن ﴿الحق﴾ تعالى زوده بأخلاق فاضلة فكل إنسان، سواء كان تابع دين أو غيره، مثقفًا أو غير مثقف، كلما يرى أمرا يخدش الأخلاق يحمر وجهه غضبا مما يدل على أن فطرته هي التي تتكلم وكلما كذب الإنسان أوّلَ كذبةٍ امتُقِعَ لونُه، وكلما حاول أوّلَ سرقة اضطربت يده، إلا أن يكون معتادًا على الكذب والسرقة؛ ذلك لأن الأخلاق الفاضلة مودعة في فطرة الإنسان من قبل الله تعالى. وحيث إن الله تعالى ﴿رحيم﴾، فكان لزاما أن تعمل الدنيا أعمالا صالحة لتُجزى عليها.

ثم إن من معاني ﴿الحق﴾ من يعد وعدا حقا لأجل ذلك قد خلق الله الإنسان متصفا بصفة الحق والصدق. إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يبلغ في الصدق منتهاه ويقدم في سبيل إعلاء الصدق والحق تضحيات عظيمة لا يوجد لها نظير في أي مخلوق آخر. لقد كان في الأمة المحمدية كثير من الأولياء الذين تحملوا في سبيل الحق مصائب كبرى حتى إنهم رضوا بالموت ولكنهم لم يتخلوا عن الحق. وتوجد في جماعتنا أمثلة شهداء كابول الذين رضوا أن يُقتلوا رجمًا بالحجارة، ولكنهم لم يرضوا ولا للحظة واحدة بأن يتركوا من أجل الناس الحق الذي اتبعوه. انظر إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، كان عمه أبو طالب يقوم بحمايته في الفترة المكية ولأنه كان رئيسا لقومه فكانت قريش لا تستطيع إيذاء النبي ﷺ كما كانوا يؤذون صحابته ولكن قريشًا لما سئمت من وعظ النبي ﷺ وأحسّت بأن الإسلام في تقدم وازدهار وأنه إذا لم يحولوا دونه فسيتعذر عليهم القضاء عليه. فذهب وفد منهم إلى أبي طالب وقالوا له إن ابن أخيك يضايقنا جدا ويسب آلهتنا ويدعو إلى إله واحد، فامنعه من ذلك، وإذا لم يمتنع فخَلِّ بيننا وبينه، وإذا لم تتخلَّ عن حمايته فلن نرضى بسيادتك ولن تكون العواقب محمودة. كان أبو طالب سيدا لقبيلته، والشعوب التي تعيش حياة قبلية تكون السيادة عندهم شيئا غالي الثمن جدا. فلما سمع أبو طالب

قول قريش أصابه القلق فدعا رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي إن القوم ثائرون وكادوا يقتلونك وإياي، لقد سعيت جاهدا لحمايتك ولكن قومي قد حذروني اليوم صراحة بأن أتركك وإذا لم أتركك فسوف يرفضون سيادتي. كان الأمر اختبارا شديدا لأبي طالب فغلبت عليه الرقة عند هذا الكلام فاغرورقت عينا الرسول ﷺ برؤية ما عند عمه من حزن وأسى. ولكنه ﷺ قال: يا عم، لن أنسى معروفك أبدا. لقد قدّمتَ من أجلي تضحيات جسيمة، ولكن يا عم لقد بعثني الله تعالى لهذه المهمة، فإن كنت تخاف من أذى قريش فخُذْ عني أمانك، لقد أراني الله الحق فلن أتخلى عنه أبدا. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري فلن أترك المنهج الذي وهبني الله إياه. (المواهب اللدنية الجزء الأول ص ٤٨، والطبري الجزء الثاني، ص ٤٠٧-٤١٠: ذكر الخبر عما كان من أمر نبي الله ﷺ، والسيرة النبوية لابن هشام الجزء الأول ص ٢٨٢، مباداة رسول الله ﷺ قومَه وما كان منهم، و ص ٣١٦ ما دار بين رسول الله ﷺ ورؤساء قريش)

هذه الكلمات ليست بكلمات هيّنة عادية. إن المؤرخين الأوروبيين المعادين للإسلام عندما يكتبون وقائع حياة الرسول ﷺ ويصلون إلى هذا الحادث ترتعش قلوبهم ويكتبون مكرهين بأن هذا الحادث يدل على أن محمدا رسول الله ﷺ لم يكن يكذب بل كان موقنا بصدق التعليم الذي جاء به.

إذًا فإن الله تعالى قد جبل الإنسان على الصدق والحق لدرجة أن حياته تنقلب تماما لتمسكه بالصدق.

ثم من معاني ﴿الحق﴾ القيّومُ المحافِظُ على الكون. والأنبياء أفضل نموذج لهذه الصفة الربانية أيضا. حينما يكون غضب الله تعالى على وشك الثوران بسبب ذنوب العباد فإن صفته ﴿الحق﴾ تتوجه فورًا إلى نبيه فيقول الله تعالى كيف يمكن أن أهلك الدنيا وهذا الشخص موجود بين أهلها. وشخص النبي يصبح بمنـــزلة التعويذة للدنيا، وينجو الخلق بسببه من غضب الله تعالى وكثير من البلايا الأخرى.

ثم إن صفة الله تعالى ﴿لا إله إلا هو﴾ - التي هي منبع لصفة الرحمانية - وثيقة الصلة بالتضحية والإيثار لأن الرحمانية تقتضي الإحسان دونما عمل أو اجتهاد من الغير. وهذه الصفة أيضا مودعة في فطرة الإنسان، فترى كيف يتفانى الوالدان في

تربية الطفل والعناية به ساهرين على راحته بكل الطرق بغض النظر عما إذا كان سينفعهما أم لا عندما يكبر. لا يكترثان لراحتهما بالنهار ونومهما بالليل، جاهدين في حمايته وبقائه. وما هذا إلا انعكاس لصفة الله الرحمانية التي تتجلى في الإنسان.

كذلك نرى أن الشخص الذي يشاهد مقام ﴿لا إله إلا هو﴾ يقف بنفسه موقف التوحيد. والمقصود من الوقوف في مقام التوحيد أن الله تعالى يحب ذلك العبد كحبه تعالى لتوحيده وتفريده ولا يبالي بالدنيا كلها إزاءه. وهذا هو المقام المذكور في الحديث القدسي: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك".. (الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة: حرف اللام).. أي، يا محمد، لولا أنت لما خلقتُ الأرض والسماوات. وأيضا من مواقف التوحيد أن الله تعالى جعل رسولنا الكريم ﷺ سيد ولد آدم وسيد الأولين والآخرين وقرر ألا تلد بعده أم من الأمهات ولدا يبلغ سمو مكانته ﷺ.

ثم إنه ﷺ قد بلغ مقام التوحيد من حيث إنه ﷺ قد تفانى في سعيه لقيام التوحيد لدرجة أن غابت الدنيا وما فيها عن أنظاره فلم ير إلا الله تعالى.

ثم إنه ﷺ قد بلغ مقام التوحيد من حيث إنه تَبوّأ أسمى مقام في التوكل على الله تعالى؛ فكان لا ينظر إلى ما سوى الله تعالى.

هذا، ولأن الله تعالى ﴿رب العرش الكريم﴾ فقد جعل لكل إنسان نصيبا من صفته ﴿رب العالمين﴾ حتى إن كل أب وأم يقومان بتربية ولدهما. وقد انعكست هذه الصفة في رسول الله ﷺ لدرجة أنه لم يبق شيء من الدنيا خارج نطاق إحسانه ﷺ. من الواضح أن جميع المخلوقات تندرج تحت ربوبية ﴿رب العالمين﴾ بما فيها الإنسان والحيوان والذكر والأنثى والمؤمن والكافر والغني والفقير وحتى الأنبياء والملائكة. وعندما نمعن النظر في حياة الرسول ﷺ يتبين لنا أنه كان مظهرا كاملا لصفة ﴿رب العالمين﴾. حتى لم يبق أي مخلوق خارج نطاق إحسانه. والحيوان من أهم المخلوقات التي أوصى الرسول ﷺ أمته بوصايا عديدة ومتنوعة بصددها. فقال مثلا: لا تحبسوا الحيوانات الطليقة، وإذا حبستموها فأَطعِموها واسقوها. ولا تذبحوا حيوانا أمام حيوان آخر لكي لا يتأذى. ولا تذبحوا حيوانا إلا بسكين حادة. ولا ترموا بالسهام حيوانا محبوسا. ولا تحمّلوه أكثر من طاقته. ولا تكوُوا الحيوان على

وجهه، وإذا كان لا بد من كيّه فعلى ظهره. كما قال الرسول ﷺ إنكم تثابون على إطعام الحيوانات الأليفة. وقال ﷺ إن إنسانًا كان يطعم بعض الحيوانات فأحبّ الله عمله، فوفّقه للدخول في الإسلام. (مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم تعذيب الهرة، وابن ماجة: كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأَحسِنوا الذبح، والبخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب، وباب النهي عن الوسم في الوجه)

وكان ﷺ شديد الاهتمام بحقوق النساء وفقًا لقول الله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٩).. أي كما أن على النساء حقوقا للرجال كذلك للنساء حقوق على الرجال، يجب عليهم أن يؤدوها لهنّ. كما أن النبي ﷺ فتح الطريق لرقي النساء في كل شعبة من شعب الحياة. لقد جعلها وارثة في المال والعقار وقام بمراعاة عواطفهن وأحاسيسهن واهتم بتعليمهن وأمر بتربيتهن وأعلن أنه كما للرجال مراتب غير متناهية للرقي في الجنة كذلك للنساء فرص غير متناهية للرقي في الجنة.

ثم تقع كثير من الخلافات بين الناس نتيجة اختلافهم كشعوب وأديان وحكومات، وتؤدي هذه النـــزاعات إلى الحروب في أحيان كثيرة. وحتى في أوقات الحروب الدامية التي لا يبالي فيها إنسان بآخر يرتفع صوت محمد رسول الله ﷺ يقول: ألا لا تقتلوا من هؤلاء الكفار امرأة ولا طفلا ولا قسيسا ولا راهبا. ولا تحرقوا بستانا ولا تهدموا معبدا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تكذبوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا من يلقي السلاح أمامكم. ولا تقتلوا جريحا، ولا تعذبوا أحدا بالنار، ولا تمثلوا بقتلى الكفار.*

* انظر البخاري: كتاب الجهاد، باب قتل الصبيان في الحرب، وباب قتل النساء في الحرب، وباب لا يعذَّب بعذاب الله، ومسلم: كتاب الجهاد، باب فتح مكة، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، وباب النهي عن المثلة، والموطأ لمالك: كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، والسيرة الحلبية الجزء الثالث ص ٩٤: فتح مكة، والطحاوي: كتاب السير، باب الشيخ الكبير هل يُقتل في دار الحرب. *(المترجم)*

ولو أردنا التعبير عن هذه الوصايا نقول إن المسلمين لما خرجوا لصدّ عدوان الكفار شاهرين سيوفهم بعد تعرضهم لتعذيب الكفار مدة طويلة فإذا هم يجدون محمدًا رسول الله ﷺ الذي أمرهم بقتال الكافرين واقفا بينهم وبين العدو يقول لهم: لا تشدّدوا عليهم أبدا. وكأن محمدا ﷺ لم يكن قائدا لجيوش المسلمين بل كان يقود جيش الكافرين أيضا ويحميهم من أية تجاوزات محتملة من قِبل المسلمين. إذًا فنجد أن الرسول ﷺ كان مظهرا لصفة الله ﴿رب العالمين﴾ حتى في الحروب.

ثم إن النبي ﷺ أحسنَ إلى العبيد، وقال: إن من ضرب عبده فهو آثم، وكفّارته أن يعتقه. وقال ﷺ: لا تطلب من عبدك من العمل ما لا يطيقه. وإذا كان العمل أكثر من قدرته فساعده، وإذا كنت لا تريد ذلك فلا يحق لك أن تسخره في العمل. وكذلك أوصى النبي ﷺ أن السيد إذا سبَّ عبده فعليه أن يعتقه على الفور. إذًا، فقد ثبت للسيد والأجير بأنه ﷺ كان مثالاً لصفة الله ﴿رب العالمين﴾. لقد قال ﷺ للأجير من ناحية: عليك أن تكسب حلالا وتعمل بجهد، وقال للسيد من ناحية أخرى: لا تسخّره في عمل لا يطيقه، وأَدِّ الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه.◈

كما أعطى النبي ﷺ التعليمات بصدد التجارة وغيرها من المعاملات، بل ليس هنالك شعبة من شعب الحياة إلا وأعطى النبي ﷺ بصددها تعليمات واضحة إحسانًا إلى الجنس البشري.

قد يقول قائل لا شك أن محمدا ﷺ قد منّ وقد أحسن بهذه التعليمات إلى الذين جاءوا بعد بعثته، لكن ما هو المعروف الذي أسداه إلى السابقين؟ فأقول لمثل هؤلاء السائلين إن النبي ﷺ لم يحسن إلى من كان في زمنه أو للأجيال التالية القادمة فقط، بل أحسن أيضا إلى الذين خلوا من قبله. لقد بُعث في زمن قد اتُّهم فيه جميع

◈ انظر مسلم: كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، والبخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، والترمذي: أبواب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، وابن ماجة: كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، وأبواب الرهون، باب أجر الأجراء. *(المترجم)*

الأنبياء بشتى التهم. والغريب أن كل نبي قد تعرّض للتهم على يد أمته المؤمنة به. لقد رُمي عيسى بالتهم وكذلك داود وسليمان عليهم السلام. بل لقد قال النصارى أن جميع الأنبياء كانوا لصوصا وصعاليك – والعياذ بالله – إلا المسيح (يوحنا ١٠: ٨). قد استثنوا المسيح بلسانهم فقط، إذ لم يرتدعوا عن رميه أيضًا بشتى التهم. فقالوا مثلا أنه أخذ حمارًا بدون إذن من صاحبه، وظل يتجول هنا وهناك راكبًا على ظهره. (مرقس ١١: ٢-٧)

وكان المسيح يسبّ الناس ويسمّيهم "جيل فاسق وشرير.." (متى ٧: ٢٣). لقد مات على الصليب حاملا خطايا الناس، وبالتالي صار ملعونا – والعياذ بالله – ومكث في الجحيم ثلاثة أيام.

(The lost books of the Bible p. 91: the apostles creed)

وكان يقتل قطعان الخنازير بدون أن يدفع ثمنها لأصحابها (متى ٨: ٣٠-٣٤). كل ذلك بحسب ما ورد في الكتب المسيحية نفسها.

ثم هناك الهندوس الذين يؤمنون بأن حضرة كرشنا وحضرة رام تشندر من أنبيائهم، ولكنهم يقولون أن رام تشندر تعامل مع "سيتا" معاملة سيئة جدا. ولو أخذنا ما ينسبون إليه من صلاح وخير لاستحال علينا أن نتصور أنه ارتكب هذا الظلم العظيم. أما كريشنا فيقولون عنه أنه كان يسرق الزبدة وهو نبي الله أيضا.

(مها ريشي وید وياس، شريمد بهاگوت مها پران دوسرا كهنڈ سكنڈھ ٩-١٢)

إذًا فكل الأنبياء قد رُموا بشتى التهم والمثالب، وإن محمدا ﷺ هو الوحيد الذي قد أعلن براءة جميع الأنبياء من التهم، موضحًا أنهم كلهم – عليهم السلام – كانوا عبادا صالحين طاهرين متقين، ويجب أن لا يُتهموا بأي تهمة. فالرسول ﷺ لم يحسن إلى الأجيال الموجودة والقادمة فحسب، بل أحسن أيضا إلى الأنبياء الذين خلوا من قبل، كما أحسن إلى أممهم. إذا أخبرت اليهودي أن أسلافكم كانوا صالحين أبرياء من كل هذه النقائص والعيوب يصبح تاريخه السابق نقيًا ومنـــزهًا من النقائص وسيحاول بكل سرور اتباع خطوات أسلافه. ونفس الحال بالنسبة للمسيحيين وغيرهم من الأمم. فالنبي ﷺ لم يعمل على رقي قومه فقط، بل قام أيضًا بتنقية

روايات الأمم الأخرى، وعرض عليهم النماذج الطيبة لصلحائهم التي لو اتبعوها لحققوا تقدمًا عظيمًا.

ثم إن النبي ﷺ أحسنَ إلى الملائكة أيضا، إذ كانت الملائكة عرضة لتهم عديدة، فجاء الإسلام وبيّن أن الملائكة ليسوا آثمين، بل إن الله تعالى لم يخلق فيهم عادة الرفض والإنكار، وإنما يفعلون ما يُؤمرون (التحريم: ٧). فمن الظلم العظيم اتهامهم بأي تهمة ورميهم بأي إثم.

ثم إن النبي ﷺ قد منّ على كل من الآثمين والمذنبين وملأ نفوسهم فرحة وبهجة. قبل بعثة النبي ﷺ كانت الدنيا كلها تقول بأن الآثمين سوف يُلقون في الجحيم الأبدية ومن دخل في الجحيم مرة لن يخرج منها أبدا وهذا يعني أن الدنيا كانت تجعل الآثمين يائسين من رحمة الله تعالى أو تغلق عليهم باب التوبة. لكن الرسول ﷺ أعلن أنه مهما صار الإنسان آثما فإن الله تعالى مستعدّ للعفو عنه. مهما كبرت ذنوب المذنبين فإن رحمة الله تعالى أكبر من ذنوبهم. فلا يأخذكم خوف وقلق بسبب الذنوب. لو تبتم إلى الله فإنه سيعفو عنكم ويغفر لكم في أي وقت. (الترمذي: أبواب الدعوات، باب فضل التوبة)

كم هو كبير هذا الأمل الذي خلقه الرسول ﷺ في قلوب المذنبين، فكم هي قوية تلك الأمنية التي نفخها محمد ﷺ في نفوسهم. باختصار لقد ظهرت صفة الله ﴿رب العالمين﴾ في شخص الرسول ﷺ أكمل ظهور، ثم ظهرت في كثير من أولياء الأمة المحمدية وصلحائها بحسب درجاتهم ولا تزال تظهر.

قصارى القول إن الصفات الإلهية الأربع التي بينها الله تعالى هنا هي التي يمكن بها قيام الأمن والسلام في الدنيا، فلولا القانون وتطبيقه لما ساد السلام في الدنيا. ثم لولا التربية الصحيحة والحياة العائلية السليمة لضاع الأمن والسلام أيضا. إنما السبيل لقيام الأمن والسلام في الدنيا أن يدرك الإنسان غاية خلقه. ويستحيل استيعاب هذه الحقيقة ما لم يعرض أمام الإنسان التعليم الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، وما لم نضع أمامه نماذج رحمة الله تعالى وما لم نقنعه بأن هذه الحياة الدنيا ليست هدفه وإنما الحياة الحقيقية هي تلك التي يُعرَض فيها على ربه، فيقول تعالى له

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر: ٣٠-٣١).. أي يا عبدي إنني أريد أن أنعم عليك بجوائز لا نهاية لها أود أن أكتب لروحك الخلود. لا شك أن حياتك الدنيوية كانت مليئة بصنوف اليأس والخيبة والمرض، ولكن تذكَّرْ أنها لم تكن الحياة كلها، وإنما الحياة الحقيقية التي سوف أهبها لك الآن والتي هي بريئة من كل أذى وذلة وانحطاط وزوال، تعال وادخل في جنتي هذه. عندما تتولد هذه الفكرة في قلب المرء وحينما يدرك أن حياته ليست لهوًا وعبثًا، بل هي تمهيد لحياة أخرى عظيمة، وأن الحياة الحقيقية إنما هي التي تبدأ بعد الموت، عندها يشعر في قلبه بطمأنينة وسلام حقيقيين، وعندها لا يفرح هو بولادته فقط بل يفرح بموته أيضا إذ يعلم أن موته لم يأت لكي يهلكه ويدمره، بل جاء ليأخذه من مقام أدنى إلى مقام رفيع جدا. هل رأيت أحدًا يبكي حينما يصير حاكما للمحافظة بعد أن كان مسؤولا عاديا؟ كذلك المؤمن لا يبكي على موته بل يفرح ويبتهج لإدراكه أنه حان أن ينال الجوائز. أما الذي يبكي لدى اقتراب أجله، فإنما يبكي لأنه ظن أن الحياة الدنيا هي الحياة كلها. ووجد أنه قد قضى مُعظم هذه الحياة في الفشل والحسرة والمرارة ولم يجد فيها أي متعة. ولكن الذي يعلم أن الحياة الدنيا هي كقاعة الامتحان، فيفرح عند الخروج منها كما يفرح الطالب الذي أجاد الإجابة على الأسئلة عند خروجه من قاعة الامتحان. فيخرج المؤمن من غرفة امتحان الدنيا فرحًا مسرورًا بعد أن أجاد الإجابة على الأسئلة ويقول في نفسه سوف أقابل بعد قليل ربًا رحيمًا قد وعدني بجوائز لا نهاية لها. سوف أذهب إليه وأتلقى منه تلك الجوائز. وكما أن طلاب الجامعات الذين يلبسون ملابس أنيقة وحللا خاصة حين يذهبون لاستلام شهاداتهم، كذلك المؤمن الموقن بواسع رحمة الله وعظيم أفضاله، عندما يموت يرقص قلبه فرحًا ويقول في نفسه: إنني ذاهب لأتلقى من ربي جائزتي. وما لم يعمر قلب الإنسان بهذا الأمل يستحيل أن ينال الراحة الحقيقية.

إذًا فإن الله تعالى قد زود الإنسان بطاقات كبيرة وقد فرض عليه أن يسعى ليكون مظهرًا لصفاته تعالى، وهذا هو الأمر الذي يبعث الله من أجله أنبياءه ويريد أن يقيم من خلالهم حكومة روحانية يكون جميع أفرادها مظاهر لصفاته تعالى.

فما لم يعتنق المرء الدين مدركًا بكل هذه المسؤوليات فدخوله في الدين وخروجه منه سيّان. إنه يُعلن أنه مسلم ويظن أنه يكفيه لإسلامه أن ينطق "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ولا يدرك أن القرآن كله إنما هو تفسير لـــ "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وأنه لن يكون مسلمًا حقًا ما لم يعمل بكل ما في القرآن الكريم. إن الإنسان ليس اسمًا لعضو واحد منه، بل هو مجموعة أعضاء كثيرة من أنف وأذن وعين ووجه وعنق ورأس وصدر وأيد وأرجل وما إلى ذلك. ولا يمكن فصل أي عضو من هذه الأعضاء عن غيرها، لا يمكن فصل الرأس ولا الجذع ولا الأيدي ولا الأرجل. وبالمثل ليس قولنا "لا إلا الله محمد رسول الله" شيئا مفردا، بل هو اسم يطلق على مجموعة أربعة أعضاء روحانية. إنه اسم يطلق على من يصير مظهرا لـــ﴿الملك﴾ و﴿الحق﴾ و﴿لا إله إلا هو﴾ و﴿رب العرش الكريم﴾. فالإنسان لن يُعَدّ صادقا في قوله "لا إلا إلا الله" إلا إذا صار مظهرا لصفات الله ﴿رب العالمين﴾، ﴿الرحمن﴾، ﴿الرحيم﴾، ﴿مالك يوم الدين﴾. فمن لم يتصف بهذه الصفات فمثله كمثل الذي يظن الشيء الذي ليس فيه قلب ولا مخ ولا أيد ولا أرجل إنسانا، إنما الناجحون الذين يجعلون أنفسهم مظاهر لصفات الله تعالى ويُحدثون في أنفسهم تغيرا طيبا، وبالتالي يحققون الهدف الذي خُلقوا من أجله.

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٨﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٩﴾

التفسير: أي من دعا أحدا لنصرته باعتباره إلها من دون الله تعالى ليس عنده دليل على كونه إلها فلا بد له من المثول أمام ربه ليحاسبه، ومثل هؤلاء الكافرين لن يفلحوا أبدا: أي أنهم لن يتغلبوا على المسلمين بل سيكون المسلمون هم الغالبين. بيد أن من واجبك لتحقيق هذا الهدف أن تسأل الله تعالى المغفرة والرحمة، وقل يا

رب أنت خير الراحمين. بمعنى أن أنجع سلاح لنشر السلام هو أن تنيبوا إلى الله وتدعوه أن يزيل ضعفكم ويعطيكم نصيبا من رحمته وكرمه، ويهب لكم من الغلبة الروحانية ما تُحدِثون به في أفكار الناس وميولهم ورغباتهم تغييرًا طيبًا، وتجذبونهم إلى التوحيد، لتضعوا الأساس لحضارة جديدة. وذلك لكي يظهر على الناس جلال الله وجماله وليقوم ملكوت الله على الأرض كما هو في السماء.

وهذا سلاح يستطيع كل إنسان استعمالَه. حتى الضعفاء والمرضى الذين أصبحوا طريحي الفراش فبإمكانهم أن يجلبوا نصر الله بطَرقِ بابه ﷻ. ويستطيع المساجين الذين يعيشون خلف القضبان أن يستخدموا هذا السلاح لينالوا ثواب خدمة الدين. كما يمكن للفقراء، الذين تعتصر الحسرة قلوبهم ويتمنون أن يملكوا مالاً ينفقونه في سبيل نشر الدين، أن يستخدموا هذا السلاح ليقرّبوا به يوم غلبة الإسلام، فيشتركوا مع الآخرين في الثواب. إنما المطلوب أن يخرّ الإنسان على عتبة الله، وأن يدعوه في غاية الخشوع والتواضع: ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.